فيروس كورونا:
الإمكان الذي يمحو الإمكان

إيمانويل آلوا
ترجمة: محمد شوقي الزين

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

فيروس كورونا: الإمكان الذي يمحو الإمكان[1]

إيمانويل آلوا[2]

ترجمة وتعليق: محمد شوقي الزين

1 Emmanuel Alloa, “Coronavirus: A Contingency that eliminates Contingency”, *Critical Inquiry*, April 20, 2020: https://critinq.wordpress.com/2020/04/20/coronavirus-a-contingency-that-eliminates-contingency/

2 إيمانويل آلوا، أستاذ الفلسفة بجامعة فريبورغ.

الآلية معروفة للأسف: لكل أزمة آثمون يُشار إليهم بالاتهام؛ بالنسبة إلى السياديين[1]، يقع اللوم في هذه الجائحة على رفع القيود عن المعابر الحدودية غير الخاضعة للتنظيم؛ بالنسبة إلى المناهضين للشيوعية، هو إهمال الحكومة الصينية التي تفضل رؤية مواطنيها يلقون حتفهم بدلاً من أن تتحمَّل استجابتها الأولية للمخاطر الأصلية [للوباء]؛ بالنسبة إلى مؤيدي نظرية المؤامرة أيضاً، لا يزال يتعلَّق الأمر بسلاح كيماوي أمريكي، فقدت وكالة الاستخبارات (الأجهزة السرية) السيطرة عليه، بينما تبتهج نظريات الانهيار الحضاري بعد أن حذَّرتنا منذ سنوات عن انفجار داخلي وشيك للكوكب، والبعض الآخر يرى في ذلك علامة، دنيوية أم إلهية، على كل الزلاَّت الأخيرة للبشرية، من الحركة المفرطة[2] إلى الإسراف في الاستهلاك. في القرن الحادي والعشرين، تُعوِّض هذه الجائحة بلايا مصر العشرة، نوع من العقاب الشامل يستهدف إلى إحداث ردة فعل جماعية عنيفة، وبالفعل نستطيع سماع كل هذه التنبُّؤات التي نصَّبت نفسها لتفسرَّ لنا ما ينبغي تغييره، في «بَعْد» الشهير لبعثنا الجماعي المتجدِّد.

الشيء اللافت في هذه الطائفة من الردود، هو نبرة اليقين التي تنبعث من أحكامها، والمدهش في ذلك عندما يستعيد أحدهم التفسيرات المقدَّمة من طرف المثقفين البارزين. يظهر العديد منهم مهزوزين قليلا بما يحدث لنا، ومتلهِّفين جدًّا لتبيان أن كل ما قالوه قبل سنوات ثبت بذلك صدقه. نجد أنفسنا في مقام الحسد من ثقتهم بذواتهم[3]. حقًّا، كل شيء سيكون سهلاً، إذا ألقينا باللوم في فيروس كورونا، إما على الرأسمالية أو على حالات الاستثناء الصحية والسياسية. يمكن أن يجد الفرد نفسه تقريباً في لحظات من العار للانتماء إلى العرق البشري، يحلم بانتقام مازوشي من كوكب الأرض، كما لو أن غايا[4] أخيراً جعلت من الإنسان العاقل (homo sapiens) يدفع ثمن كل ما تسبَّب فيه خلال قرون. في الواقع، ألا يشبه العالم سيناريوهات بعد نهاية العالم التي زوَّدتنا بها هوليوود في أفلامها حول الكارثة بحواضر شبحية المنظر وشوارع حَضَرية مهجورة؟ في حركة عكسية، كأن في الشريط الوثائقي القديم لديزني الطبيعة المعيشة الحية، الذي تستعيد فيه الحياة اليد العليا حتى في الأوساط الطبيعية الأكثر عدائيةً، تبدو الطبيعة اليوم كما لو قامت بإعادة احتلال الأقاليم الخالية بسبب الاحتجاز.[5]

---

1 السيادية (Souverainism) هي المذهب السياسي الذي يذود عن سيادة الدولة القُطرية ذات حدود معلومة ضد سياسات عابرة للدول كما تتيحها العولمة. (المترجم)

2 الحركة المفرطة (hypermobility) تتبع منطق التسارع الذي تحدث عنه بول فيريليو (Virilio Paul)، حيث أصبحت السرعة هي مقياس العصر، في السيولة المالية عبر الشبكة وفي البورصات، علاوة على وسائل النقل والمواصلات السريعة. (المترجم)

3 طبعاً يستعمل الكاتب هذه العبارة على سبيل السخرية من أولئك الذين ينصبون أنفسهم "أنبياء العصر"، بالقول بأن كل ما تنبؤوا به من قبل يحصل الآن. كان بيل غيتز (Bill Gates)، مدير شركة مايكروسوفت، قد أشار سنة 2015 إلى إمكانية أن يواجه العالم مستقبلاً جائحة مميتة، غير أن تصريح بيل غيتز، جاء في سياق انتشار أوبئة محلية تمَّ التحكُّم فيها نسبياً مثل إيبولا (Ebola) في أفريقيا أو سارس (Sars-Cov) في الشرق الأوسط. كان احتمال وقوع جائحة على أوسع نطاق وارد، تماماً مثلما حدث في التاريخ مع الطاعون الأسود في العصر الوسيط ابتداءً من سنة 1348م.(المترجم)

4 غايا (Gaia, γαῖα)، شخصية أسطورية، اسمها مأخوذ من اسم «الأرض» في الإغريقية (Gê, Γῆ). (المترجم)

5 أي بسبب إجراءات الوقاية من حجر صحي ومنزلي. (المترجم)

في اليونان، قامت الحيتان الزعنفية مرة أخرى بالمخاطرة في الموانئ؛ في التشيلي، نزلت الفهود من السلاسل الجبلية[6] للبحث عن الطعام في وسط المدن، بينما في البندقية انتهت مياه البحيرة الشاطئية والصامدة بدون إزعاج السفن السياحية[7] بأن أصبحت صافية مجدَّداً. لذلك ينبغي أن يكون المعنى الحقيقي لأزمة فيروس كورونا هو الرسالة البيئية العاجلة، صفعة منبِّهة من الطبيعة الأم لكل أولئك الذين رفضوا الإنصات إلى الأجراس المنذرة التي دقَّت مراراً وتكراراً ناقوس الخطر، من أندري غورز[8] إلى غريتاتونبرغ[9]. كم كان ذلك ليكون سهلاً، لو كان في مستطاعنا أن نقدِّم تفسيراً سهلاً لهذه الأزمة، والذي يظفر بدعمنا الفوري، ولو نستطيع القيام بذلك وبعدها الندم، على انفراد أو على نطاق عالمي. لا عجب إذاً في أن الآلة المسبِّبة للمرض تشتغل بأقصى سرعة؛ الأزمات الكبرى هي قبل كل شيء محن المعنى، وبانعدام كل رؤية؛ فمن السهل اللجوء إلى القصص المريحة، حتى حينما لم تفعل هذه الأخيرة شيئاً على الإطلاق للتطمين.

أمام هذا المنفذ التفسيري وبالكاد المرقَّع من أجل المناسبة، ماذا لو سلَّمنا بأن هذا الحدث يُقوِّض بشدَّة قناعاتنا اليقينية ويحرمنا من اللجوء إلى عكازاتنا المألوفة[10]، مع كل الخطر الذي يحمله عدم الاعتراف بالأثر العميق الذي يتركه الحدث في حياتنا؟ ماذا لو تأمَّلنا، ولو لبرهة واحدة، حقيقة الطبيعة **عديمة المعنى** لما يحصل لنا؟ جائحة كورونا في حدِّ ذاتها وفي طبيعتها عبثية ولا معنى جوهري لها. لم يكن تفشِّي المرض ضرورياً ولا خطيًّا. ليس الفيروس أكثر قصدية من الصفيحة التكتونية[11]، التي تُسبِّب أمواجاً عاتية (تسونامي) أثناء تحرُّكها. لماذا لم نرَ هذا آتياً؟ يُكلِّفنا القبول به، خصوصاً لأنه حصد عدَّة أرواح على أعقابه، غير أن فيروس كورونا هو في عداد الإمكان ويبقى كذلك. صحيح، أن انتشاره كان ممكناً، وربما يكون البعض قد بدأ في حساب احتمال وقوعه. غير أن الإمكان ليس نتيجة منطقية. كما بيَّن أرسطو منذ عهد بعيد، الإمكان هو عندما تحدث أشياء كثيرة بصورة عَرَضية الواحدة إلى جانب الأخرى، وتبدو من ثمَّ سلسلة متواصلة، بالرغم من عدم وجود ضرورة لذلك.

---

6 كورديليرا (Cordillera) هي سلسلة جبلية طويلة تمتد لمئات الكيلومترات، نتيجة لقاء صفيحتين جيولوجيتين. (المترجم)

7 مثل الجندول (Gondola) وهي القوارب الطويلة والرقيقة التي يستقلها السواح لزيارة المدينة العائمة البندقية أو فينيسيا. (المترجم)

8 أندري غورز (André Gorz (1923-2007، فيلسوف فرنسي، أحد أعلام الإيكولوجيا السياسية. (المترجم)

9غريتا تونبرغ (Greta Thunberg) هي ناشطة سويدية ذات صيت عالمي، تحمل هموماً بيئية وأثارت انتباه المسؤولين السياسيين عبر العالم حول مخاطر الاحتباس الحراري وتغير المناخ. (المترجم)

10 أي الوثوقيات والضمانات التي اتكأنا عليها خلال أزمنة طويلة عبر أنساق فكرية أو أيديولوجية. (المترجم)

11 الصفيحة التكتونية (tectonic plate) هي الطبقة الجيولوجية التي بحركتها تحت الأرض تسبب الانجراف القاري وتُسبب الزلازل. (المترجم)

الأسواق الرطبة متعدِّدة الأنواع، البؤرة المحتملة لوباء كوفيد19-، حيث تقف أقفاص أم قرفة[12] (pangolin) والخفافيش والأفاعي جنباً إلى جنب، هي أحسن مثال على عبثية هذا التواصل المنظَّم على غرار علم التصنيف السخيف المستوحى من الموسوعة الصينية كما تخيَّلها [الكاتب] خورخي لويس بورخيس. أحد أعظم المخاطر التي نواجهها اليوم، هي أن خطاباً جديداً حول الضرورة يترسَّخ على المدى الطويل. يُركِّز أحدهم على معنى الفيروس وأسبابه الرئيسة، بل كذلك على الأجوبة الساذجة التي يزعم أنها مُلحَّة (العبارة الشهيرة: «علينا فقط أن...»). هنا تكمن بالفعل الآثار الأكثر ضرراً ودماراً للحريات، عند أولئك الذين يعطون باستمرار الانطباع بأن الطريق مسطَّرة سلفاً، في هذا الاتجاه أو ذاك. لا تقبل علاجات ووصفات، ضرورية وحتمية، أيَّ تناقضٍ.

يبدو معقولاً لفترة معيَّنة أن نتبنَّى بعض السلوكيات الجماعية، لأنه لا توجد طريقة أخرى. رغم ذلك، نختبر للتَّو، يوماً بعد يوم، تغييرات عميقة يتركها هذا الإمكان -فيروس كورونا- في حياتنا. أمام المسافة الجسدية المفروضة، نجيب بالحضور التكنولوجي عبر الشاشة؛ بتعليق العلاقات الاجتماعية، نجيب بإجراءات افتراضية تشاركية. من شأن هذه الإجراءات الآلية أن تفتح مجالاً معتبراً من الإمكانات. لكن بإسناد مهمَّة إدارة الحياة كليَّةً إلى الخوارزميات، مخاطر جسيمة تلوح في الأفق. في الوظائف[13] ذات التركيبة البشرية الصلبة، يُحافظ الانتقال إلى أشكال لامادية على وهم التوفُّر الدائم والاهتمام المتزايد، بينما في الغالب العكس هو الصحيح. تدرس مؤسسات الرعاية الصحية حالياً إمكانية إجراء مواعيد للعلاج عبر التداول بالفيديو، وذلك من أجل التخفيض من التكاليف. باسم الحد من الاكتظاظ في المؤسسات -وذلك بدعوى أنه في صالح المرضى-، نتَّجه شيئاً فشيئاً نحو العلاج المتماسف والمجرَّد.

في مجال التعليم، ثمة إجراءات مماثلة هي حالياً قيد الدراسة. سبق وأن طالبت بعض الجامعات في المملكة المتحدة من موظَّفيها تسجيل كل الدروس الدورية في فيديوهات قصد بثِّها في حال المرض أو الغياب. بالطبع، سيحرم هذا النوع من التدبير الباحثين من حقهم في الإضراب، لأنه حين يُعوَّض الصف الدراسي في أيِّ وقتٍ عبر وسيلة معادلة قابلة للتحميل، فما الفائدة من تعطيل العمل؟ يمكننا أن نتخيَّل بسهولة بأن العنصر البشري المشارك في أنشطة مثل استقبال الطلاب يتم تحويله إلى نوع مزيَّف من الحضور الفردي عن بعد[14]، على شاكلة تعهيد (outsourcing) الخط التجاري المباشر. تتيح لنا تجربة الحجر المنزلي في

12 أثبتت الدراسات العلمية أن الحيوان أم قرفة كان الوساطة في نقل الفيروس من الخفاش إلى الإنسان، ثم انتشار العدوى من شخص إلى آخر. (المترجم)

13 بعض المهن سهلة الإتيان عبر العمل عن بعد بوسيط الشاشة (Teleworking)، لكن تتطلب مهن أخرى، وهي كثيرة، الحضور الجسدي كالخدمات والمطاعم والأسفار والسياحة. (المترجم)

14 هناك نموذج من الروبوتات هي شاشات وراءها أشخاص يغيبون جسدياً، لكن يشاركون عن بعد في حفلة تخرُّج أو في سهرة طلابية أو فنية. (المترجم)

زمن كورونا استخلاص عدَّة دروس. ليس صحيحاً أن التباعد الجسدي يعادل بالضرورة التباعد الإنساني (لهذا السبب عبارة التباعد الاجتماعي غير ملائمة تماماً).

رأينا عدَّة حالات عزَّزت فيها الأزمة أواصر التضامن بين العلاقات الوطيدة، بين الأقارب أو الجيران. لكن بحثِّ المواطنين على تعليق كل النشاطات «غير الضرورية»، فإن السلطات سلَّطت الضوء على كل ما يُحدِّد جوهر العلاقات الاجتماعية: لقاءات عابرة، مبادلات طارئة، التعرُّض لما هو غير متوقَّع. بحملنا أفراداً على التركيز على ما هو «أساس»، فقد عُدنا باختصار إلى ما نعرفه، بابتعادنا عن هذا الجانب من الإمكان الذي هو خميرة كل العلاقات البشرية. كذلك، يُقابل اختفاء الفضاء العمومي المشترك تواري المفاجأة. في فترة الحجر المنزلي، أصبحت خوارزميات التلفزيون حسب الطلب الموزِّع الرئيس لأفلامنا ومسلسلاتنا المفضَّلة[15]، في حين يتمُّ تسليم طلبيات الطعام إلى الأبواب، بدون رؤية وجه الشخص المسلِّم الذي يرجع على عقبه بسرعة.

يُهيمن خطاب الضرورة حيثما أدرت وجهك وينتهي تعهيد الارتياب بتحويله إلى مجرَّد متغيِّرة رياضية. صحيح أن الحياة الاجتماعية لم تختفِ في زمن الحجر المعمَّم. بالاستعانة بالتقويم في تنسيق المشهيات والأعشية الافتراضية، يتمُّ إعادة تأسيس الروابط. لكن هنا أيضاً، هؤلاء «الآخرون» الذين نجدهم هم الآخرون الذين نعرفهم ونألفهم. في الوقت الذي نتقن فيه تخطيط اجتماعاتنا القادمة، فإنَّا نحرم أنفسنا فرصة إنجازها فعلياً. بسبب لقاء فقط أولئك الذين نعرفهم (أو أولئك الموعودين في مواقع التعارف الذين يُفترض أن تتطابق أوصافهم مع أوصافنا)، يتساءل الواحد أيُّ مكانٍ يبقى لشيء يختلف جذرياً - ما سمَّاه ستيفان مالارميه «النضارة الفورية للقاء».

لنحرص على عدم التضحية لهذه الجائحة بقيمة من القيم الأساسية للحياة الديمقراطية: نَصِيبُها من العشوائية واحتماليتها؛ لأن الاجتماع الديمقراطي لم يتحدَّد بشكلٍ نهائي، بل يفتقر أساساً لأيِّ نوعٍ من الضرورة، حيث في وُسع أعضائه أن يتقدَّموا مع بعض ويُقرِّر والحالة التي يريدون منحها لاجتماعهم هذا. لنحرص كذلك في أجوبتنا المناعية المعمَّمة ألا ندفن أنفسنا أكثر في يقينياتنا، لكن أن نقبل بأن هذا الإمكان يمكن أن يتصرَّف كخرق قوي لخيالاتنا.

إيمانيول ألوا

الاثنين 20 أبريل 2020

15 أحسن مثال على ذلك شبكة التلفزيون الإلكتروني "نتفليكس" (Netflix) المتخصصة في الأفلام والمسلسلات حسب الطلب. (المترجم)

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : 54 99 77 537 212+
الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020